الفصل الحادى عشر

الفلسفة التحليلية واهتمامها بالوجود اللفظى

نقصد بأصحاب الوجود اللفظى فى الفلسفة فريقين: فريق الفلسفة الذرية المنطقية مثل لود فيج فتجنشتين وبرتراند رسل، وفريق الفلسفة الوضعية المنطقية من أمثال كارناب وشليك ورايشنباخ وآير. فهذان الفريقان بالرغم مما بين ممثليهما من فروق، فإننا نستطيع أن نتحدث عن ممثليهما على أنهم من أصحاب معسكر أصحاب الوجود اللفظى أو أصحاب الفلسفة التحليلية.

وسيكون حديثنا عنهم من الزاوية التى تهمنا هنا فى دراستنا للعلاقة بين الإنسان والعالم، حيث سنبين تصوراتهم للإنسان والكون والوجود ككل. وسنرى كيف أنهم حولوا الفلسفة من ميدان الوجود العام إلى ميدان اللفظ واللغة، فأصبحت الفلسفة معهم دراسة لقضية على هامش الوجود، أو هى فلسفة تدرس أمرًا لا يقع فى صميم الوجود وإنما قبل الوجود.

فقد هاجموا الفلسفة التى تثير مشكلات من قبيل: الجوهر، والعلة، والمبدأ، والعدم، والوجود، والأصل، والمصير... إلخ، وتجعل من مهمتها الرئيسية بعد ذلك حل هذه المشكلات. ويمكن للفلسفة أن تصبح ذات قيمة إذا ما بعدت عن تلك المشكلات وعن محاولة تقديم الحلول لها، وإذا ما أصبحت تحليلا للغة. وبهذا المعنى ستكون الفلسفة تحليلية، وستكون هى المنطق، لأن المنطق كما يفهمه أصحاب هذا الاتجاه لا شأن لقضاياه بأمور الواقع، بل هو بحث فى جهازنا الرمزى اللغة، وتحليل لعناصره أو لوحداته التى يتركب منها.

وإذا كانت الفلسفة تحولت معهم إلى المنطق، فغدت هى والمنطق شيئًا واحدًا، فإن المنطق عندهم أصبح بدوره منطقًا للغة لا للوجود، ومن هنا فهو يختلف عن المنطق الواقعى عند هيجل الذى يقوم على ديالكتيك الصيرورة والتأليف بين الموضوع ونقيضه والذى يستند على الماهية التاريخية. وإذا كان التصور أو الفكرة فى المنطق الهيجلى يتحقق فى الماهية الواقعية، فإن الفكر عند الفلاسفة التحليليين إنما يتحقق فى اللغة. بل إنهم قد ذهبوا الى أن اللغة هى الفكر.

ولقد رفض هؤلاء الفلاسفة البحث فى الوجود العام والحق والخير والجمال، لأنهم زعموا أن إصدار أى أحكام على مثل هذه الأمور عمل زائف، يقول كارناب: «إننا لا نصدر حكمًا حول واقعية المعطيات التى أمامنا، وعما إذا كان العالم الطبيعى مظاهر لحقيقة أخرى أم لا. وذلك لأن الأحكام بالنسبة إلى التحليل المنطقى ليست إلا مشاكل زائفة». لكن إذا كان هؤلاء الفلاسفة يريدون أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ولا يصدرون أحكاما تتعلق بوجود الأشياء وأمور الواقع، فكيف يتسنى لنا أن نصدقهم فى قولهم بأنهم يحتكمون إلى وجود الأشياء الواقعية فى رفضهم لقضايا الميتافيزيقا، وذلك فى مبدئهم المسمى بمبدأ التحقق؟ كيف نجعل نفس الشىء معيارًا ثم نعود فنسحب منه الثقة على هذا النحو؟ فهم بعد ما قالوا إنهم لا يصدرون أحكامًا على الواقع، عادوا فقالوا بأن الواقع معيار للتمييز بين العبارات الصادقة والكاذبة، واعتبروا أن العبارات التى تتناول أفكارًا من قبيل الأفكار الميتافيزيقية إنما هى عبارات خالية من المعنى، لأنها أفكار لا يمكن التحقق من وجود ما يقابلها فى الواقع، وبالتالى لا يمكن القول بأنها صادقة أو كاذبة يمكن أن نقول عنها فقط – من وجهة نظرهم – إنها خالية من المعنى، لأنه ليس هناك مشاهدات فى الواقع الخارجى تقابل الأفكار التى تتضمنها وهم يقسمون العبارات إلى عبارات تحليلية وأخرى تركيبية أو تأليفية. والعبارات التحليلية هى عبارات تحصيل الحاصل التى لا تأتى بجديد. وكل قضايا المنطق والرياضيات من هذا الطراز. والعبارات التأليفية هى التى تأتى بجديد وتؤلف موضوعاتها من العالم الخارجى. أما الميتافيزيقا فلا يمكن أن نقول عنها إنها تحليلية، ولا يمكن كذلك أن نصفها بأنها تأليفية، ولهذا فهى عديمة الجدوى.

ومن هنا فإن أحد الفلاسفة التحليليين، وهو برتراند رسل، يعتبر أن الفلسفة التى تشتمل على تصورات وأحكام عن الوجود ككل، عن الكون فى مجموعة عن الحياة فى معناها الشمولى – فلسفة غير علمية. ويقدم لنا بدلًا منها فلسفة علمية أو فلسفة تصطنع المنهج العلمى. والفلسفة الجديرة بهذه الصفة عند رسل فى الفلسفة التى لا تكتفى فقط بإخراج الدين والأخلاق وعلم الجمال من حسابها، بل تكف أيضا عن تقديم تصورات تتعلق بالوجود ككل. أكثر من هذه الفلسفة العلمية فى نظر رسل لن تسمح لنفسها أن تتحدث عن الأشياء المادية والأشخاص لا تتمتع بما نظن أنها حاصلة عليه من وجود. والنتيجة لهذه النظرة أن تلوذ الفلسفة بالوجود الوحيد الذى تطمئن إليه، وهو الوجود المنطقى.انظر

مثلا إلى عبارة كهذه «إذا كانت س عضوًا فى الفئة أ، وأ عضوًا فى الفئة ب، فإن س لابد أن تكون عضوًا فى الفئة ب، أيًّا كان كل من س، أ، ب». هذه العبارة تقدم لى وجودًا لا أستطيع أن أشك فيه. وفوق ذلك فإنها تقدم لى وجودًا عامًّا. وينطبق ما تقرره على كل ما فى الكون حاضرًا وعلى ما يمكن أن يوجد فيه مستقبلا دون أن تشير فى مدلولها إلى موجودات بعينها وينبغى أن نلاحظ أن الوجود العام عند رسل ليس هو الوجود ككل، وإنما هو الوجود المنطقى الذى أراد يحصر الفلسفة كلها فيه.

مع أن فلاسفة هذا الاتجاه يزعمون أنهم يرفضون إصدار أحكام عن العالم ككل، فإن أحدهم وهو فتجنشتين يتساءل سؤالًا فلسفيًّا أصيلًا هو: ما هو العالم؟ والإجابة عنده وعند المناطقة الذريين الوضعيين هى أن العالم ليس مكونًا من أشياء بل من وقائع ولكن ما الفرق بين الواقعة والشىء؟ الشىء قائم بذاته: قلم، مسطرة مائدة... إلخ. أما الواقعة فبناء يتألف من ارتباط تلك الأشياء فيما بينها بعلاقة ما، مثل «القلم فوق المائدة». لكن ليس العالم عندهم مجموعة من الوقائع فقط، بل مجموعة من الوقائع معبرًا عنها فى قضايا أو صيغ منطقية. فاهتمامهم بالوقائع يختلف عن اهتمام أى شخص بها. لأن الوقائع وحدها عندهم هى التى يمكن أن يعبر عنها فى صيغ منطقية. فقولى «هذا الشىء أحمر»، أو «القلم فوق المائدة»، أو «عطيل أحب ديمونة» قضايا أو صيغ منطقية والوجود الذى تقدمه لى هذه الصيغ المنطقية أكثر تجريدًا من وجود الوقائع فى مجراها الواقعى. وأكثر تجريدًا من وجود الأشياء، كما يقول رسل. فالقضايا المنطقية لها عندهم كينونة مجردة الأشياء، وعن مجرى الوقائع. فقضية «سقراط فان» لها كينونة خاصة. ولا تعتمد على وجود سقراط فى الخارج أو على هدم وجوده. إن وجودها أو كينونتها شىء آخر، كما يقول رسل أيضا. ولما كان وجود القضايا مختلف عن وجود الوقائع. فإن القضية لا تعتبر عن الواقعة ولا تمثلها، لأنها بناء قائم بذاته. ومن هنا يمكن القول بأن العالم الذى نقلنا إليه المناطقة الوضعيون عالم مجرد يدير ظهره للواقع ولكل التشكيلات الواقعية النابضة بالحياة والتى تتكون فى الطبيعة وفى المجتمع بطريقة متقنة وتتألف منها مركبات ذوات علاقات معقدة تلزم الذات العارفة والإنسان الفرد باحترامها. إننا هنا مع الوضعيين المناطقة فى عالم مجرد، ممعن فى تجريده. وذلك لأن فتجنشتين لا يصل إلى وقائعه عن طريق الواقع، وإنما طريقه إليها هو اللغة. الواقعة عنده الجملة التى بها من الإمكانية – وأقول الإمكانية فقط – ما يسمح لها

أن تولد واقعة أخرى أبسط منها، أو ما يسمح لها أن تنحل – عن طريق التحليل المنطقى، أو هكذا يسميه – إلى واقعة أخرى (جملة أخرى) أكثر بساطة منها.

ويتحدث رسل وفتجنشتين حديثًا غير معتاد عن الشىء. فهذا الكرسى الذى أجلس عليه ليس شيئًا عندهما، لأنه مركب. أما الشىء فهو الجزىء الحسى: نبرات الصوت، ومضات اللون، بقع اللون، لمسات الأصابع... إلخ، وبعبارة أخرى أن الشىء هو الواقعة الذرية، مثل: «هذه بقعة حمراء» التى أصل إلى معرفتها عن طريق ما يسميه رسل المعرفة باللقاء. أما إذا قلت مثلا: «هذا قلم» فالمعرفة فى هذه الحالة معرفة بالوصف. وهذه التفرقة قال بها رسل ليقضى على وجود الجوهر المادى الذى كان قد قرر باركلى أنه غير موجود وأرجعه إلى حزمة من الصفات أو الكيفيات المدركة بالحواس، فجاء رسل وقرر ما كان قد قرره باركلى من عدم وجود جوهرى مادى، وأرجعه لا إلى كيفيات مدركة حسيًا بل إلى جزئيات حسية عارضة لا تحتل من الزمان أكثر من لحظة خاطفة، بل أن زمان اللحظة أكثر بكثير من الزمان الذى يحتله الجزىء الحسى.

ولا شك أن هذه النظرية الذرية إلى وجود الشىء المادى قد أدت بالتعاون مع النظرة المنطقية إلى إذابة الكيان المادى للشىء. ولم يكتف هؤلاء الفلاسفة بالقضاء على الوجود المادى للأشياء، بل قضوا كذلك على الكيان الواقعى للأشخاص. فإذا كانت أسماء الأعلام فى اللغة العادية تشير إلى أشخاص واقعيين، فإن هذا يعد أمرًا خاطئًا ونظرة غير صائبة إلى أسماء الأعلام من وجهة نظرهم. فهذا الشخص الذى أمامى مهما أقسم لى رجل البوليس أنه شخص واحد عن طريق التحقق من بطاقته الشخصية أو هويته – ليس فى حقيقة الأمر إلا مجموعة من اللقطات التى أكونها عنه فى ظروف متباينة. وإذا كانت هناك أفعال تصدر عن هؤلاء الأشخاص وترتبط بهم وإذا كنا نعبر عن هذه الأفعال فى عبارات لغوية مثل: «مؤلف السلطان الحائر» و«مؤلف ويفرلى» و«مشيد الهرم الأكبر» قاصدين بالعبارة الأولى شخصًا معينًا هو «توفيق الحكيم» وبالثانية «سكوت» وبالثالثة «خوفو»، فإن رسل فى نظريته المسماه بنظرية الأوصاف المحددة يؤكد لنا أن هذه العبارات لا تدل على هؤلاء الأشخاص لأننا لو اتجهنا بها هذا الاتجاه لجعلناها تشير إلى وجودات قائمة وثابتة فى الخارج، الأمر الذى علينا أن نتفاداه. إنما تدل العبارات عنده على دلالات لفظية

أخرى، لأن كل عبارة منها تولد عبارات لفظية أخرى، وكل عبارة منها تضم مجموعة من الرموز الناقصة التى تصبح كاملة إذا أضفنا إليها رمزًا آخر. فعبارة «مؤلف السلطان حائر» يكتمل مغزاها إذا جعلناها «مؤلف السلطان الحائر مصرى». وهذه العبارة الأخيرة تقرر ثلاثة أشخاص: أن شخصًا ما ألف السلطان الحائر، أن شخصًا واحدًا هو مصرى. فهذه المغازى اللغوية هى الدلالة الحقيقية لهذه العبارة. ومن الخطأ – عند رسل – أن نقول إنها تشير إلى شخص معين فى الخارج هو «توفيق الحكيم»!.

والنتيجة المترتبة على نظرية الأوصاف المحددة لرسل لا تتمثل فقط فى القضاء على وجود الله والروح والنفس والضمير الأخلاقى والإرادة، بل تتمثل أيضًا وبشكل أساسى فى القضاء على وجود المادة والكيان المادى للإنسان. ولهذا يمكن القول إن الإنسان عند رسل لم يعد له روح ولا مادة.

هكذا انتهت الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية إلى القضاء على الكيان الإنسانى مادة وروحًا باسم النظرة العلمية الدقيقة التى تستبعد من مجال العلم كل ما لا يقبل التحقق الواقعى. ثم أنها لم تكتف بذلك فأنكرت أهمية دراسة الوجود العام والحق والخير والجمال، ورفضت أن تصدر أحكاما تتعلق بالواقع اللهم إلا الواقع اللفظى، فاختزلت الوجود كله فى اللفظ، والفلسفة كلها فى المنطق!

والخلاصة أن الفلاسفة التحليليين قد رأوا أنه لم يعد من حق الفلسفة والفلاسفة أن يصدروا أحكامًا على الواقع: واقع الأشياء المادية وواقع الأشخاص وواقع الوجود ككل، ولم يعد من حقهم أيضا معالجة القيم: قيم الحق والخير والجمال لأنها أمور وجدانية وليست علمية وأصبحت وظيفة الفلسفة عندهم محصورة فقط فى توضيح ما نعرفه من قبل، وذلك لاعتقادهم بأن المشكلات الفلسفية لا تنتج إلا من الخلط وسوء الفهم عند الفلاسفة التأمليين. وهذا التوضيح لمعارفنا السابقة هو الذى يقصده فلاسفة الوجود اللفظى من قولهم بأن الفلسفة أصبحت تحليلية، بأن المنهج الوحيد الذى ينبغى على الفلاسفة أن يتبعوه هو المنهج التحليلى. والتحليل هنا هو تحليل للتصورات، أو هو بالأحرى تحليل للغة التى نعبر بها عن تلك التصورات.

فقد لاحظ جورج مور مثلا – وهو أحد الفلاسفة التحليليين – أن الفلاسفة التأمليين قد درجوا على استعمال الألفاظ والعبارات على نحو يختلف عما يجرى فى استعمال الناس

العاديين. ولهذا بات من واجب الفلسفة التحليلية أن تقوم بتحليل المفاهيم والتصورات التى تمثل موضوعات تلك الألفاظ والعبارات، وذلك عن طريق التصور المركب الغامض إلى تصورات بسيطة، أو عن طريق «فكه» إلى أجزائه، والحصول على تصورات أخرى مختلفة عن التصور الأصلى لكنها تمثل تكافؤا منطقيًا له. الهدف من وراء هذا التحليل اللغوى التوضيحى هو إبراز التناقضات الكامنة فى المفاهيم والتصورات الفلسفية، وتقديم إضافة جديدة لمعرفتنا بالعالم وبالأشياء. وبعبارة أخرى فإن الهدف من وراء هذا التحليل هو تحويل الصياغات المجردة التى درج على استعمالها الفلاسفة إلى أمور واقعية مستعملة فى اللغة الجارية العادية، وذلك بهدف تبديد ما حولها من غموض وضباب. وقد يؤدى بنا التحليل إلى أن نكتشف أن بعض المصطلحات التى يستخدمها الفلاسفة خالية تمامًا من المعنى. وعلى هذا النحو يكون معنى التحليل – كما عند براترند رسل – هو التعريف الجيد الذى يؤدى إلى رد المفاهيم الفلسفية الغامضة إلى عناصرها، باعتبار أن هذه المفاهيم ليست فى حقيقتها إلا أوهامًا لابد أن نقوم بعمليات تشذيب وبتر لزوائدها تؤدى إلى نتيجة حتمية وهى «الاقتصاد فى الفكر» عن طريق ما يسميه رسل «نصل أوكام» ويجد فتجنشتين مهمة الفلسفة التحليلية من جانبه بأنها التوضيح المنطقى للأفكار. فالمنطق هو الذى يكشف لنا عن بناء أو تركيب العالم. وهذان البناءان بناء واحد. إذ إن اللغة مرآة أو صورة للعالم تقدم تخطيطا أو صورة تخطيطية للواقع اللفظى للعبارة التى أمامنا، صورة نقوم فيها بحصر إمكانياتها اللغوية، وكل ما يمكن أن تولده من عبارات لفظية أخرى، إيجابًا وسلبًا.

وهكذا نرى أن الفلسفة قد أصبحت على يد رجال المدرسة التحليلية تكتفى بالاحتماء فى منطقة هامشية هى منطقة اللغة أو منطقة الوجود اللفظى، وتقتصر مهمتها فقط على التحليل اللغوى بدلاً من أن تتناول مشاكل الوجود الواقعى والمسائل الأخلاقية الحيوية التى يهتم بها الأفراد والمجتمعات على السواء. لكننا لا نريد فى الوقت نفسه أن نقلل من أهمية الدراسات اللغوية المنطقية فى إلقاء أضواء كثيرة على بعض المفاهيم الفلسفية الغامضة.

* * *